

المحاضرة الخامسة: المقاومة الثقافية للسياسة التعليمية الإستعمارية:

واجهت النخبة الجزائرية والفئات الشعبية السياسة الثقافية الإستعمارية بردود أفعال ومواجهة شعبية ضد الأساليب والوسائل التي اتبعتها المستعمر الفرنسي لفرض ثقافته وأفكاره على الجزائريين، ولم يرضخوا للواقع المفروض عليهم.

1-مقاطعة التعليم الإستعماري:

أخذت المقاومة في بدايتها شكل القطيعة مع التعليم الإستعماري، حيث أنّ معظم الجزائريين قاطعوا المدارس الفرنسية ومنعوا أبناءهم من الإلتحاق بسبب الأوضاع السياسية والجرائم المستعملة في حقهم إضافة إلى الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية، وكان البعض يدفع المال من أجل منع أبناءه من الإلتحاق بالمدارس الإستعمارية، أمّا الفئات التي التحقت بهذه المدارس فكان أغلب أفرادها من العائلات المتنفة ممن يشكلون الطبقة البرجوازية، حيث يواصلون دراستهم في الثانويات إلى غاية البكالوريا، أما أبناء العائلات المتواضعة فلم يكملوا دراستهم لأسباب متنوعة¹.

واعتبر الجزائريون ما تقوم به المدارس العربية الفرنسية مرتبب بأهداف إستعمارية بحتة وهو ما عزز المقاطعة لأنّ الأمر متعلق بمشروع دمجهم وربط مصيرهم بالأمة الأوربية وهو مالا يتناسب مع ثقافتهم، خاصة وأنّ المدرسة الفرنسية لا تراعي ثوابت المجتمع الجزائري ودينه كما تفتقد إلى معلمين جزائريين، ومن الأعدار التي تحجج بها السكان في منع أبناءهم من الإلتحاق بالمدارس بعدها عن السكان، في المقابل كانت المؤسسات الدينية من كتاب وزوايا مليئة بالطلاب من أجل المحافظة على الهوية الوطنية وثوابتها، واستمرت في رسالتها الثقافية وتنقل إليها التلاميذ من المدن إلى الأرياف طلبا للعلم والمقاومة الثقافية².

كما شمل الرفض للسياسة التعليمية بعض العائلات المتنفة في الجزائر التي منعت أبناءها من الإلتحاق بالمدارس الفرنسية إلا بعد إلحاح كبير، رغم تعرضهم للمضايقات من طرف الإدارة الإستعمارية، وكان تخوف الأهالي من إرسال أطفالهم ودخولهم في النظام الداخلي خوفا عليهم من تناولهم لوجبات محرمة ونسيانهم عقيدتهم، ونجد أنّ الفئة الأكثر مقاومة من الجيل الأول الجزائري الذي

¹.Guy pervillé, les étudiants algériens de l'université française 1880-1962, editions CASBAH, Alge, 2004 , pp 23-24

².سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص30.

تمسك بثقافته الإسلامية، ورفض سياسة التغريب الإستعمارية منتهجا نهج الآباء والأجداد برصيدهم التاريخي الأصيل.

2- التظاهر وتقديم عرائض والاحتجاجات:

من مظاهر المقاومة قيام مظاهرات ضدّ القرارات المجحفة بغلق المؤسسات الدينية، وتقديم مطالب من أجل تدعيم التعليم الإسلامي الحرّ، وعرائض واحتجاجات إلى المسؤولين الفرنسيين على التصرفات التعسفية الممارسة، ومنها العرائض المقدمة من طرف أعيان الجزائر أمثال حمدان خوجة وإبراهيم بن مصطفى باشا وأحمد بوضربة في الفترة الممتدة ما بين 1830-1836، والتي كان من جملة مطالبه احترام الدين الإسلامي ومؤسساته وأوقافه، وإعادة الأملاك التي استولى عليها الجيش وتدعيم التعلم بفتح المدارس العربية، وفي هذا الجانب قدّم الشيخ محمد ابن رحال (1857-1928) مطالب مشروعاً للجنة التحقيق الخاصة بالأعيان سنة 1892 بإعادة تنظيم التعليم العالي في الجزائر والإهتمام بالمدارس الإسلامية ودعمها في الجزائر العاصمة وتلمسان وقسنطينة وتحديد مدة الدراسة، وزيادة عدد المدرسين من أجل تطوير وتنظيم التعليم الإسلامي بما يتجاوب وتحقيق العدالة للمتعلمين³، كما قام سكان قسنطينة برفع عريضة إلى حاكم المقاطعة في 28 جانفي 1897 يطالبون فيها ببقاء المدارس القرآنية مفتوحة طوال اليوم، حتى يتمكن السكان من تعليم أبنائهم، كما عارضت كتلة المحافظين الأفكار الغربية والمشاريع الإستعمارية رغم الإغراءات والضغوطات، وتجنّدت للدفاع على النظم الإسلامية والهوية العربية الإسلامية، والدعوة إلى احترام العادات والتقاليد الجزائرية ونشر التعليم العربي والانفتاح على الجامعة الإسلامية، معارضين التجنيد الإجباري، وسياسة التجنيس والتجديد على الطريقة الغربية⁴.

وعرف التعليم الإستعماري تراجعاً مقارنة بالتعليم العربي ونقص الإقبال عليه وبخاصة في الأرياف مقارنة بالمدن، فالأرياف استطاعت أن تقف أمام السياسة الإستعمارية التغريبية عكس المدن التي واجهت صعوبات في الصمود أمام

³ عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر دراسة سوسيوولوجية، ترجمة: فيصل عباس، مراجعة: خليل أحمد خليل، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1982، ص 94.

⁴ سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص146.

التحديات الإستعمارية، واللجوء إلى الهجرة نحو المغرب وتونس أو المشرق العربي كمظهر من مظاهر الرفض الشعبي للسياسة التعليمية⁵.

ولم تكن مقاطعة المدارس الفرنسية هي الوسيلة الوحيدة التي اعتمدها الشعب الجزائري للتعبير عن رفضه للتعليم الفرنسي، فقد لعب الأدب الشعبي دورا في الحفاظ على الكيان الجزائري في الأسواق العامة والمناسبات الإجتماعية والمقاهي الشعبية بتناول المدح والقصص مثيرا للعواطف ومذكرا بالتاريخ والأحداث والانتصارات، إضافة إلى التراث الذي تركته الطرق الصوفية بما تضمنته من علاقات روحية تجمع الشيوخ بالمريدين في تلاوة الأذكار والأوراد، ومعتقدات وممارسات صوفية تحفظ الذاكرة الجماعية وتساهم في الحفاظ على استمرارية الروح الوطنية⁶.

وتعدد مظاهر الرفض الشعبي للسياسة التعليمية الإستعمارية يستثنى منه بعض العائلات المتنفذة التي تكونت منها النخبة الليبرالية التي استفادت من التعليم الإستعماري ودافعت عنه، وبهذا نجد أنّ المحافظين سعوا جاهدين للحفاظ على الشخصية الجزائرية وقاوموا الخطط الإستعمارية الرامية إلى طمس الهوية الوطنية بتدعيم من الفئات الشعبية وتدعيم التعليم العربي الإسلامي أمام التعليم الإستعماري .

⁵ جيلالي صاري، محفوظ قداش، الجزائر صمود و مقاومات (1830-1962)، تر :اوداينية خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 264-277.

⁶ بسعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص70.